سوريا» (اكسفورد، ١٩٦٦)، و«التسلل الثقافي الروسي الى سوريا ــ فلسطين في القرن التاسع عشر» (لندن، ١٩٦٦).

أما الميدان الثالث لمتابعاته، فهو نشوء العالم العربي وتحوله، وبخاصة ما يتعلق بسوريا التاريخية. وهنا ينتصب امام اعيننا عملان بارزان: كتابه المدقق بحرص عظيم عن «تاريخ سوريا الحديثة المشتملة على لبنان وفلسطين» (لندن، ١٩٦٩) والذي يبقى أهم مرجع منفرد عن التاريخ الحديث لسوريا على المستويات: الثقافية والسياسية والاجتماعية. وكتابه الآخر الأقل شهرة ، والمعادل في القيمة . حول «الدين في الشرق الأوسط» (كامبردج، ١٩٦٩) المعنوَن «الجانب الثقافي» [للدين].

وحدهم المطلعون على مكانة الدكتور طيباوي العلمية هم الجديرون بادراك آفاقه الرحبة، وفرادته الشامخة وشموليته الواسعة. فجميع مصنفاته الفكرية تمتاز بأحكامها النقدية واحاطتها بالمعلومات الوافية ورجاحة العقل وبعد النظر. وعلى الدوام، كان متنبهاً الى المناطق العمياء وروح التحامل والاحكام المغلوطة والمزالق التي وقع فيها العديد من العلماء الذي كتبوا عن الشرق الأوسط، سواء من اليهود ام من المسيحيين أم من المسلمين، وبغض النظر عن خلفياتهم القومية.

الكنوز الفكرية التي خلّفها الدكتور عبد اللطيف طيباوي لا تعد ولا تحصى، وهي منائر تمثل تراثاً ثقافياً أصيلاً ومآثر نظرية مضيئة. ومن الطبيعي، امام رجل من هذا الطراز وبهذا الوزن، أن يميل كل من دراسيه الى اسباغ قيم متعددة على الموضوعات التي تصدى الراحل الجليل للتأليف فيها. اما فيما أرى، ودون ان أقلل من شأن آثاره الأخرى، فأميل الى اعتبار المساهمات الثلاث التالية قمما متميزة: الاولى مأثرته ذات الآفاق السبّاقة حول الرؤيا الفلسطينية في العودة مجسدة في مقالته الرائدة وذائعة الصيت التي كثر الاستشهاد والاشادة بها، وهي: «رؤى العودة: اللاجئون الفلسطينيون العرب في الشعر والفن العربيين» (**ميدل ايست جورنال**، عام ١٩٦٣، ص ٢٦٢ ــ ٢٧٢)، التي اطلقت صرخة يقظة نبّهت كل من يعنيهم الأمر الى الاصرار الفلسطيني الذي اكتسى بكل خطورته المدوية في ما بعد. والثانية عمله النقدي حول الاستشراق «المستشرقون الناطقون بالانكليزية» (لندن، ١٩٦٤)؛ فهذا الكتاب شكل الانقضاض الأول والأشد على الثقافة الاستشراقية، وهو الكتاب الذي تعرض في سبيله الى حملة عارمة من المستشرقين الغربيين. وهذا الكتاب مهّد الارض للأعمال النقدية اللاحقة، بما فيها ما كتبه أنور عبد الملك، وادوار سعيد. وأما الثالثة فكونه اول عالم كبير تصدى لدحض خرافة الدور الذي ينسب الى الارساليات الاميركية في نهضة القومية العربية، وهي المقولة التي لا تزال تجد من يرددها حتى يومنا هذا. وفي أعماله التاريخية الرئيسية حول العرب والاسلام الحديث، يبقى واحدا من العلماء القلة الذين لاحظوا بحق ان النزعة العلمانية للمجتمع العربي نجمت عن ضغط المجتمع الاسلامي الذي كان يحاول التكيف مع الأقليات غير المسلمة اكثر مما كانت نتيجة للضغط الذي مارسته الأقليات او القوى الخارجية. وكمؤرخ للدور البريطاني السلبي في العالم العربي ومساهمته المشؤومة في الكارثة التي احاقت بوطنه فلسطين، كان الدكتور طيباوي دقيقا بصورة ثاقبة ومترفقا في الأحكام.

واعترافاً بمآثره العظيمة في دنيا التعليم والتربية، منحته جامعة لندن، عام ١٩٦٢، درجة دكتوراة في الاداب، ونال بعض ما يستحق من تكريم من جانب العديد من الهيئات العلمية والجمعيات المهنية. وقدم له المركز الثقافي الاسلامي في لندن كتابا تذكاريا بعنوان موفق: «باقة من المختارات العربية والاسلامية: مهداة الى عبد اللطيف طيباوي» من زملائه وأصدقائه وطلابه. وفي العام ١٩٧٨، قامت رابطة الجامعيين العرب ــ الاميركيين بتكريم الدكتور طيباوي والاشادة بعطائه الفكري الغني.

وفيما تضطرم في كياننا مشاعر الأسى والفجيعة، ذهولا بهذه الخسارة الهائلة، فاننا على يقين من ان عالم الفكر والعلم والثقافة سوف يفتقد، بأسف شديد، هذه الشخصية الخصبة ذات الثقافة الراسخة والعميقة. بيد أن العالم هو افضل حالا اليوم بالتأكيد بسبب ما خلفه له الدكتور طيباوي من تراث غني وخالد.

د. ابراهيم أبو لغد